كتاب (زعماء الاصلاح)

كتاب ألفه الأستاذ الدكتور أحمد أمين يتضمن سيرة عشرة من المصلحين المحدثين فى الأقطار الإسلامية المختلفة.. للقدوة والدرس والدراسة لترشد على الطريق خطى شباب حائر بل شعوب تسأل أين الخلاص وكيف ومتى.

هؤلاء العشرة لكل منهم إشراقات وصفحات ودلالات يقولها الكتاب ولكنى فى هذا الحيز المحدود اكتفى أو اجتزىء بأربعة هم:

السيد أحمد خان والسيد أمير على من الهند، على باشا مبارك وعبدالله النديم من مصر

وددت فى البداية أن اختار الشيخ محمد عبده وهو أحد العشرة من هذا الكتاب ولكنى عدلت حتى لا أكرر نفسى فقد كتبت عن الشيخ محمد عبده دراسة مستفيضة ضمها أحدث كتبى (كتبت يوما).

السيد أحمد خان

يقول عنه الدكتور أحمد أمين (هو فى الهند أشبه شىء بالشيخ محمد عبده فى مصر بعد مفارقته للسيد جمال الدين وعودته من نفيه، الإصلاح عندها إصلاح العقلية بالتثقيف والتهذب، والنظر إلى الدين نظرة سماحة ويسر، والاستقلال يأتى بعد ذلك تبعا فلا استقلال لجاهل ولا مخرف، إنما عماد الإستقلال، العلم بالدنيا وبالدين، العلم بكل شىء أتت به المدنية الحديثة من طبيعة وكيمياء، ورياضة وفلك، ونفس واجتماع، ونظام الحكم والإدارة، ذلك كله إلى دين يحيى القلب، ولا يقيد العقل، ويغذى النفس ولا يشل التفكير، والإسلام إذا فهم على أصوله كفيل بذلك، فليس فيه ما يمنع الإنسان أن يصل فى العلوم ونظم الدنيا إلى غايتها، بل فيه ما يبعث على ذلك ويشجعه، وفيه ما يحيى القلب، ويوجه الإنسان فى حياته. وفى علمه وفى تفكيره إلى الخير. ثم كلاهما كان يرى أن السلطان فى مصر وفى الهند فى يد الإنجليز، ولهم من القوة المادية من الأسلحة والذخائر فى البر والبحر، ومن القوة العلمية والسياسية مالا تستطيع الهند ومصر مقاومته.. مع الجهل والفساد).

وهنا رأى السيد أحمد خان أن (المفتاح) هو (التربية) فبدأ خطته فيها بإنشاء جمعية أدبية علمية في «عليكره» حيث كان قاضيا بها سنة ١٨٦١ تهدف إلى نشر الآراء الحديثة في التاريخ والاقتصاد والعلوم.. وترجمة أهم الكتب الانجليزية في هذه الموضوعات إلى اللغة الأردية.

إن الإنجليز أعداء وطنه ولكن الإسلام يرى أخذ الحكمة أينما وجدت (خذوا الحكمة ولو من أهل النفاق) و (من تعلم لغة قوم أمن شرهم).

العلم درع ونافذة على آفاق مديدة.

ومن هذا المنطلق كانت للسيد أحمد خان جولة عظيمة في إصلاح اللغة الأردية يقول الدكتور أحمد أمين (لقد كانت هذه اللغة قبله كاللغة العربية في عهد الظلام: عشق وغرام ومديح، وأسلوب مزركش الظاهر فارغ الباطن. فنقلها إلى آفاق واسعة، وأصبح من موضوعاتها السياسة والاجتماع والأخلاق والدين والتاريخ والأدب في أسلوب متين فيه القوة والسلاسة والصفاء، والسعة، غزير المعنى، خال من التصنع).

إن اللغة دعامة من دعامات الاصلاح في النهضات الكبرى في أي بلد وهو درس لمن يجافون العربية بين قومنا ويتمسحون بسواها.. إن كل لغة عالم جديد من الأفكار والصور ولكن بشرط أن تظل اللغة الأم في مكان الصدارة على أرضها وبين قومها..

ومن مآثر السيد أحمد خان، أنه على غير العادة في العظماء.. عمل على خلق الصف الثاني لتتواصل دعوته وتمتد رسالته فكان له ما أراد. فهو كما يقول استاذنا الدكتور أحمد أمين (.. قوى في اعتناقه آراءه ومبادئه والجهر بها والعمل عليها، ولكنه سمح النفس مع الناقد الشريف، باذر الحب للنفوس حوله عليها، حتى تنمو وتقوى، مشجع لأتباعه وتلاميذه أن يروا رأيهم، ويستعملوا حقهم في صراحتهم، كما يستعمل حقه في صراحته. ولذلك كان حوله وبعده من يكمل خطته، ويسلك منهجه، ويحمل رايته، ويصلح ما أخذ عليه، من مثل سراج على، والسيد أمير على).

السيد أمير على

السيد أمير على من ثمرات السيد أحمد خان وكان من الممكن الاكتفاء بالاستاذ والاجتزاء بالإشارة إلى تلاميذه ولكن في سيرة السيد أمير على من التميز والمؤشرات الحاسمة ما يستحق أن يفرد له الموضوع..

(لقد قابل «السيد أحمد» فى انجلترا، ثم قابله فى الهند، وطالما تجادلا لاختلاف وجهة نظرهما فى إصلاح مسلمى الهند، فالسيد احمد يرى أن الإصلاح وسيلته التربية والتعلم فقط من غير انغماس فى أية ناحية من النواحى السياسية، والسيد أمير على يرى أن التربية وسيلة صحيحة، ولكن لابد بجانبها من علاج الشئون السياسية للمسلمين فى الهند، ووضع خطة لها إزاء خطة الهندوكيين، وإلا ضاع المسلمون بجانب الهندوكيين.. لابد من وضع غرض سياسى وتنظيم خطة وتحديد مطالب ورسم طرق السير. والسيد أحمد يأبى ذلك ويقول لا شىء إلا التربية. ولهذا سار كل منهما على مبدئه، فالسيد أمير على يؤسس سنة ١٨٧٨ (الجمعية الوطنية الإسلامية) للدفاع عن حقوق المسلمين وتحديد الوضع السياسى لهم ويدعو السيد أحمد) للعمل معه فيأبى.

وأخيرا جدا وفى آخر حياة «السيد أحمد» يؤمن بصحة نظرية السيد أمير على، بفضل حوادث الهندوكيين، فيؤسس «جمعية الدفاع الإسلامية»).

ويمتاز «السيد أمير على» بتعدد الثقافات فى منابعها الأصلية من خلال تعدد اللغات التى تعلمها إلى حد الاتقان.. فكتب فى الانجليزية ونشر عدة كتب عن الإسلام أحدثت دويا وكان لها صدى بعيد فكتابه (محمد وتعاليمه) قال عنه المستشرق اسبورن Osborn: (إن هذا الكتاب يستحق الاعجاب حقا، وقد كتب بأسلوب يدل على ملك كاتبه ناصية اللغة الانجليزية. أسلوب قل من يستطيع أن يجاريه من الانجليز المثقفين.. أسلوب خلا من العيوب التى وقع فيها مثقفو الهنود...).

وهو ما ينقصنا مما يحبط أمثال سلمان رشدى والمتهجمين على الإسلام والكائدين له ويعوق انتشارهم.. يقول الدكتور أحمد أمين (ونشر هذه الكتب بالانجليزية البليغة كان له أثر كبير لم يسبق إليه وهو تعريف الأوربيين بالإسلام ومحاسنه من مسلم متحمس، إذ لم يكونوا يسمعون عن الإسلام إلا من مستشرقين.

ودعا السيد أمير على إلى: إصلاح الأوقاف

إصلاح المرأة وتعليمها

وقد جهر بهاتين الدعوتين فى المؤتمر الذى انعقد سنة ١٩٠٠ قائلا:

(إن بالأوقاف وخيراتها انتشرت العلوم، وتقدمت المعارف، وأدت وظيفة نافعة فى جميع الأقطار الإسلامية.. ولهذا أطالب الحكومة بإحاطتها بما يحفظها فهى فخر المسلمين وحصنهم الحصين تجاه الفقراء والأيام العسيرة).

وقال عن المرأة: (لقد أتى على المسلمين زمن كان النساء فيه يلقبن «بأمهات الرجال».. وإذا كنا نريد أن نرتفع فى سلم المدنية والارتقاء وأردنا أن يحترمنا الناس، فلابد من تربية بناتنا حتى يصلن إلى أن يكن «أمهات الرجال».

ومن أنبل أعماله أيام الحرب بين ايطاليا وتركيا والعرب فى طرابلس تأليفه جمعية تجمع المال من الخيرين وتنظم وحدات علاجية لجرحى العرب والترك عندما علم أن جمعية الصليب الأحمر تعنى أكثر ما تعنى بالمجروحين من المسيحيين ومن هذا عندما سأله المشرف على فرق العلاج: «هل وظيفته فقط أن يعنى بجرحى المسلمين؟ قال له: (إن وظيفتك الأولى أن تعنى بجرحى العرب والترك ولكن هذا لا يمنعك أن تمد يد المعونة لجرى النصارى واليهود فى ساعات الضيق والحرج).

كان إنسانا كبيرا.

على باشا مبارك ١٨٢٣ - ١٨٩٣

كانت طفولته مثالا لاقتحام العقبة بالإرادة حتى استطاع أن ينتقل من القرية وكان يعيش فيها عيشة ضنكة يائسة إلى القاهرة بدور العلم فيها وإلى باريس حيث درس الهندسة المدنية ثم الهندسة الحربية.

وكم كان طريفا حين زار، بعد عودته من أوربا، قريته «برنبال» لابسا بزته العسكرية على النمط الفرنسى، متقلدا سيفا ويمر امامه الشريط الطويل أيامه فى القرية كيف كان فى الكتاب وكيف كان يضرب، وكيف كان يهرب وكيف قسا عليه الكتبه الذين التحق بخدمتهم، وماذا تحمل من المشاق حتى وصل إلى مدرسة قصر العينى وكيف كانت حياته فى باريس و «متز».

ودق الباب ليلا.. وأترك القصة للدكتور أحمد أمين:

(أجابته أمه: من؟ فقال: على مبارك فلم تصدق ونظرت إليه من خرق الباب، وسألته أسئلة تعرف منها صدقه، حتى إذا فتحت الباب ورأته وقعت مغشيا عليها، ثم أفاقت وهى تهذى، تبكى

وتضحك، وتزغرد ثم يخرج من جيبه عشرة (بنتو) لتقيم الولائم وتدعو معارفها من أهل البلد، وكلهم مغتبط بما انجبت برنبال من حاكم من الحكام).

ولكن هذا (الحاكم) فى نظر أمه، لم ينج من بطش الحكام الآخرين فقد غضب سعيد باشا عليه فألحقه بالفرقة الحربية التى سافرت لتساعد تركيا فى حربها مع روسيا.. ومن جديد لقى عناء شديدا وشقاءً شديدا ولكنه كدأبه أبدا استطاع أن يحيل المحنة أو النقمة إلى نعمة فتعلم فى هذه المدة، اللغة التركية وأجادها وعاد إلى مصر ليوظف حينا ويطرد حينا ويشتغل أثناء الإعصار والإعسار بالتجارة حينا وبالهندسة الحرة حينا حتى جاء اسماعيل باشا فأعيدت الحياة العلمية وابتسمت الأيام لعلى مبارك»

يقول الدكتور أحمد أمين (لقد عمل على مبارك أعمالا كثيرة تتصل بما اختص به من هندسة مدنية وحربية، فقد عهد إليه فى (تصميم) شوارعها وفتحها و (تصميم) ترع وإنشائها، وبناء جسور واستحكامات ومساجد وغير ذلك من أعمال هندسية عظيمة، ولكن كل ذلك لم يكن سر عظمته وصحيفة خلوده، إنما كان ذلك فى شىء لم يتعلمه ولم يتلقه عن استاذ، هو: اصلاحه للتعليم فى مصر بالوسائل المختلفة وبناؤه فى ذلك بناء ضخما يعد دعامة النهضة التعليمية فى مصر.. حتى عد من كبار المصلحين.

أحصى على مبارك كتاتيب القطر وشخص مشاكلها ووضع لها «لائحة» تسمى «لائحة رجب» - وهو تاريخ صدورها- تعد بحق خطوة خطيرة فى تاريخ التعليم فى مصر عالج فيها كل المشاكل التى صادفته من مراعاة الأمور الصحية وتدبير المال اللازم ورفع مستوى الفقهاء- وقد سماهم «المؤدبين»

* أنسأ دار العلوم.

* أنشأ دار الكتب.

* أنشأ مجلة سميت «روضة المدارس المصرية» رأس تحريرها الشيخ رفاعه الظهطاوى.

* بعث حركة التأليف والترجمة متكاتفا مع الشيخ رفاعه الطهطاوى.

ألف على مبارك فى الهندسة كما ألف (الخطط التوفيقية) فى عشرين جزءا أو خمسة مجلدات فكان عظيم النفع أكمل بها خطط المقريزى وما توالى على القاهرة والمدن والقرى المصرية.

* ألف كتاب (علم الدين) معلنا من خلال موضوعه أن الإصلاح السياسى لابد أن يرتكز على الإصلاح التعليمى. وهو فى هذا كالشيخ محمد عبده.. كان متخوفا من الثورة العرابية أن تفتح الباب على مصر وهو ما حدث.. ومع هذا لم يفارقه حنان القلب المصرى على ثورة عرابى وإن خالف (عرابى) فى الرأى ولكنه تبرع بشىء من ماله لهذه الحركة.

يقول الشيخ مصطفى عبدالرازق: (نعم ان الشيخ محمد عبده لم يكن يدعو إلى الإصلاح الاجتماعى عن طريق الثورة ولكنه لما رأى الثورة قائمة لنصرة مبادىء هى مبادئه ومبادىء أستاذه «جمال الدين» اتصل بها وألقى فى نارها قبسا.)..

عبدالله نديم ١٨٤٥-١٨٩٦

قصة حية فيها من الوقائع ما هو أغرب من الخيال منذ درج طفلا فى الاسكندرية -أصله من الشرقية- إلى أن بلغ مبلغ الرجال غير أنى لا أستطيع أن اختزل كتابا فى صفحات.. حسبى أن أرسم خطوطا عريضة.

اقترن اسم عبدالله نديم بصحيفة (التنكيت والتبكيت) وتقوم على نقد السياسة العامة للبلد ونقد العيوب الاجتماعية الخاصة.. كل ذلك فى أسلوب يسترعى الانتباه فقد التزم اللغة البسيطة السهلة عن تفكير وروية فكان طبيعيا أن يلتقطه العرابيون ويضموه إلى صفوفهم وهنا اتخذ جريدة (الطائف) بدل «التنكيت والتبكيت» ونقل مكانها من الاسكندرية إلى القاهرة وبدأها عنيفة قوية، وطالب بضرورة إصلاح الحكم النيابى وانتقد الأوربيين وتصرفاتهم ونقد الخديوى توفيق لارتمائه فى أحضانهم ومجاراتهم.

ولم يكتف بالصحافة فعول على الخطابة وهنا طوف فى كل مجتمع يخطب يقول الدكتور أحمد امين (أُعطى من ذلاقة اللسان ما يسترعى العجب، فما هو إلا أن يحرك لسانه حتى يتدفق وتنهال عليه المعانى والألفاظ انهيالا. وقد نشر فى البلاد فن الخطابة. وعلم كثيرا من الناشئة أن يخطبوا فى المحافل..

كان عبدالله نديم لسان الأمة فى عهده بخطبه، وقلمها بصحفه، ينتقل فى الأقاليم ولا يكل ولا يمل، وينشر آراءه ومشاعره فى أكبر عدد ممكن من الأمة وبذلك ساعد على نمو رأى عام

مصرى يؤمن بالحكم الشورى، ويتطلع إلى الإصلاح فى الأمور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية).

ويقول: (ولئن أخفقت الثورة فيقظة الرأى العام -إلى حد ما- وشعوره بنفسه، وتنبهه لحالته الاجتماعية والسياسية لم يخفق، ويتجلى ذلك على الأخص إذا قورن بينه وبين حالته من قبل).

ومما يحسب لعبدالله نديم، أنه بعد هزيمة الثورة العرابية وتنكر الكثيرين لها حتى ممن اشتركوا فيها، لم يتنكر ولم ينكص وهنا تبدأ ملحمة جديدة تستحق التسجيل.

يردد الشارع المصرى كلمة فهلوة وفهلوى ويسأل اناس عن معنى الكلمة ولا أجد لها معنى واسعا أكثر من قصة عبدالله نديم عندما اختفى بعد الثورة العربية وجدت الحكومة فى طلبه ورصدت مكافأة ألف جنيه لمن يرشد عنه.. العقوبة القصوى لمن يخفيه فيذهب كل ذلك سدى، مدى نحو عشرة اعوام احتال فيها حيلا اين منها حيل أبى زيد السروجى فى مقامات الحريرى كما يقول الدكتور أحمد أمين ومثل روايات أين منها الروايات البوليسية المعروفة، وقد قال هو عن نفسه فى هذه الفترة:

(خرجت من مصر مستخفيا فدرت فى البلاد متنكرا، أدخل كل بلد بلباس مخصوص، وأتكلم فى كل قرية بلسان يوافق دعواى التى أدعيها، من قولى إنى مغربى أو يمنى أو مدنى، أو فيومى أو شرقاوى أو نجدى. وأصلح لحيتى إصلاحا يوافق الدعوى أيضا، فأطليها فى مكان عند دعوى المشيخة، وأقصرها فى آخر عند دعوى السياحة -مثلا- وابيضها فى بلد، وأحمرها فى قرية، وأسودها فى عزبة)..

يقول الدكتور أحمد أمين (كان يجتمع بمن يعرفهم فيثير عجبهم، لأن المقدرة مقدرة «النديم» ولكن يختلف فى الشكل والصوت واللهجة فيقولون: سبحان الله جل من لا شبيه له).

هل تصدق أنه ادعى مرة -وهو فى القرشيه- أنه عالم يمنى وذاعت شهرته فى العلم والأدب حتى سمعت بها القاهرة.. فأرسل إليه رياض باشا، «سعد زغلول» ليسأله عن معنى مثل ورد ذكره فى بعض الجرائد ولم يفهم معناه فقابله على أنه عالم يمنى وفسره له!!

بعض الناس كان يفطن إليه ولكنه كان يحفظ السر بل يمده بالمال ويعينه على الاستخفاء، وأحد هؤلاء الشيخ محمد الهمشرى عمدة (العتوة) بمديرية الغربية

وأفسح له فى داره مدة ثلاث سنوات ومن الطريف أنه اثناءها زوجه وزوج خادمه!

بل صادف النديم أثناء تنقله، مأمور مركز أى رجل الشرطة فصرف جنده ثم اختلى به وقال (لا ضرورة لتتكرك فقد عرفتك، وأعطاه ما معه من نقود ورسم له خطة السير فى طريقه حتى لا يضبط؟!

ومن عجيبأأمره أنه فى هذه المحن كلها حاول أن يزود نفسه بالدراسة حاول أن يقرأ وأن يكتب وأن يؤلف.. يفعل هذا والنفس فى بلبال بل زلزال حتى خادمه علمه القراءة والكتابة وحفظه جملة سور من القرآن الكريم..

رمت به مقاديره يوما فى قاعة مظلمة لا يتوصل إليها إلا من سرداب طويل مظلم، يرشح الماء من أرضها لقربها من ترعة فكان يقرأ أيضا على مصباح صغير يضاء بالغاز فيملأ الحجرة دخانا ويستمر فيها نحو تسعة أشهر!!!

يقول الدكتور أحمد أمين: (كان يبلغ به سوء الحال أحيانا، مع الرغبة الشديدة فى الكتابة أن يصنع الحبر من هباب الفرن، ويضيف إليه بعض قرظ السنط ويتخذ أقلامه من الحجناء) - الحجناء نبات معروف بمصر -

وحين قبض عليه أرسل إلى طنطا للتحقيق وكان وكيل النيابة إذ ذاك قاسم بك أمين فأحسن معاملته وأمر بأن ينظف مكانه فى السجن ويضاء كما يريد وأن يمكن من شرب القهوة والدخان كما يشاء وأمده بالمال من عنده.

وكان هم التحقيق متجها إلى معرفة من آواه وهل كانوا يعرفونه أو لا يعرفونه ولكنه أنكر كل الإنكار أن يكشف سرا..

إنها مصر التى أعطت «عبدالله نديم» وأعطت الذين عرفوه، وارتفعوا على المكافأة نبلاء وأوفياء.

لحياة عبدالله نديم بقية مذهلة فليرجع إليها من أراد فى كتاب استاذنا الدكتور أحمد أمين (زعماء الإصلاح).